قضيّة المرأة من الجبرتي حتى قاسم أمين

ريما عقّاد سلام

ما إن تثار مسألة تحرير المرأة في القرن الماضي حتى يسارع الكثيرون إلى ذكر قاسم أمين كرائد للدعوة إلى النهضة النسوية، ولكن أمين، وإن كنا لا ننكر فضله في هذا المجال، لا نعتبره صاحب الدعوة الأول ولا الوحيد الذي ارتفع صوته بتحرير المرأة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. «فمسألة المرأة» أقدم من ذلك. ولعلّ خروجها إلى العلن بدأ في أوائل القرن التاسع عشر إبّان الحملة الفرنسيّة على مصر عام ١٧٩٨ حين أخذ الجبرتي مؤرّخ هذه الحملة يرصد الأوضاع الإجتماعيّة التي تخبّطت فيها المرأة المصريّة آنذاك، ويستنكر ظواهر تحرّرها وخروجها، حسب زعمه، عن الحشمة والوقار. لعلّ الجبرتي بالغ في نقمته على تأثير الحملة الفرنسية على النساء، ولكنه أظهر رغم غضبته تقديراً لإحدى السيدات (نفيسة المراديّة)، فأفرد لها في كتابه «عجائب الاثار في التراجم والأخبار» ترجمة يظهر فيها إعجابه بتلك المرأة «العظيمة» على حدّ قوله.

وقد تحول الموقف تجاه الغرب عند من أصبحوا بعد الجبرتي أكثر وعياً لحقيقة الحضارة الفرنسيّة إلى مستوى أكثر دقة ومسؤولية. فعمل الطهطاوي على تبنّي ما لمسه شخصياً من فوائد الحضارة الأوروبية متحاشياً قدر الإمكان الوقوع في التقليد الأعمى، فأخذ يدعو إلى تعليم المرأة مبيّناً أهمية ذلك التعليم بالنسبة إلى تربية الأولاد وصلاح الحياة الزوجية. كما دعا المرأة إلى خوض العمل إذا دعتها الحاجة إلى ذلك. وقد حرص الطهطاوي في كلّ ذلك على الربط بين دعوته المتأثرة بالغرب وبين الإسلام الذي خرج منه بمفاهيم على جانب كبير من الأهمية.

وقد اخترنا بعد الطهطاوي ودعوته الرائدة إلى تحسين أوضاع المرأة في مصر تيّاراً فكريّاً إسلامياً لاحقاً ربما عادت إنطلاقته في الأساس إلى السيّد جمال الدين الأفغاني. فالأفغاني الذي تحاشى الخوض تفصيلاً في موضوع المرأة اكتفى بالدعوة إلى تعليمها إلى ذكر ما لذلك من أثر على تربية الأولاد تاركاً لتلميذه الشيخ محمد عبده مهمة النهوض بالمرأة المسلمة والدفاع بجرأة

ملحوظة عن قضيّتها. وتتجلّى هذه الجرأة أكثر ما تتجلّى في إباحته للخاطب حرية أن يعاشر خطيبته قبل الزواج. لكن نظرة الإمام عبده المنفتحة بالنسبة إلى المرأة وتحريرها حجاباً وعملاً وخدراً وما إلى ذلك ظلت مقيدة. إذ إنه ظلّ يرى كسائر المفكّرين المسلمين أن للرجل حقّ الرياسة لأنه المطالب شرعاً بحماية المرأة والنفقة عليها. وتعقّبنا أثر الشيخ عبده في تلميذه محمد رشيد رضا، فدرسنا مجلته «المنار» منذ بداية صدورها حتى وفاته متجاوزين في تلك الدراسة عتبة الربع الأول من القرن العشرين. وقد أردنا من وراء هذه الدراسة أن نوضح أن تلك المدرسة الإسلامية التي أظهرت بوادر تجديدية على يديّ عبده عادت إلى شيء من المحافظة والتقييد على يديّ رضا الذي حرص جاهداً على أن يعود إلى الإسلام من منطلق الحرص على إثبات أفضليته على سواه في ميدان تحرير المرأة كما في سائر الميادين.

ولم نغفل في دراستنا التيّار الفكري الشامي المواكب للتيّار المصري. فاخترنا من المفكرين الشوام الشدياق والمعلّم بطرس البستاني وابنه سليم لنقدّم هؤلاء على سواهم في ميدان المرأة. ولقد واجهتنا في دراسة اثار الشدياق صعوبات، أهمّها صعوبة قراءة الأعداد المتبقيّة من جريدة «الجوائب» في مكتبة الجامعة الأميركية نظراً إلى رداءة الميكروفيلم. لذلك، كان معولنا الأساسي على «كنز الرغائب» نختار منه كلّ ما يتعلّق بمسألة المرأة. أما البستانيان،فلم نهمل أثراً من اثارهما إلاّ وتتبعناه، خاصة جريدة «الجنة» ومجلة «الجنان». فهذه الأخيرة اقتضت الكثير من الوقت والجهد نظراً إلى أن فهرستها اقتصرت فقط على الأعداد الأولى. وقد انطلقنا من دراستنا لهؤلاء المفكّرين الثلاثة إلى زملائهم الشوام المتمصّرين الذين هاجروا إلى مصر وسكنوها حتى وفاتهم، وعلى رأس هؤلاء صرّوف والشميّل وأنطون. إعتمدنا في دراسة فكر صرّوف على مجلة «المقتطف» حتى المجلد السبعين أي سنة وفاة صرّوف نفسه. ولم نتوقف في دراستنا مجلته عند «باب تدبير المنزل» فقط، بل تحرّينا أيضاً فكره في باب «المسائل والتقاريظ» وغيره. وقد استوقفنا في «المقتطف» مقالات كثيرة العدد لا تحمل توقيعاً فاقتضانا ذلك الرجوع إلى مؤلّفاته الروائيّة جميعاً مستعينين بها على تبيّن ما يمكن أن يعود من هذه المقالات إلى صرّوف. وكان معتمدنا في دراسة الشميّل المجموعة، أمّا بالنسبة إلى أنطون فقد حاولنا جاهدين دراسة جميع آثاره في مجلته «الجامعة» وفي ما نشر له بمجلة «السيّدات والرجال»، وهذه الأخيرة لم نجد منها في مكتبة الجامعة سوى فيلم واحد.

ولقد اختتمنا هذه الدراسة بقاسم أمين فقارنّا بينه وبين من سبقوه ومن عاصروه. ولم نغفل في خلال البحث ذكر بعض الردود على دعوته، إلاّ أننا لم نصنّف هذه في باب مستقلّ خوفاً من خروج البحث عن الخطة التي وضعناها له منذ البداية وهي دراسة «مسألة المرأة من الجبرتي حتى قاسم أمين».

نؤمن أن هذا البحث هو أول محاولة لدراسة مفصلة وشاملة لمسألة المرأة في القرن الماضي.

فهو يشتمل مع شيء من المقارنة على أهم روّاد النهضة خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. رجاؤنا أن نكون قد وفّقنا إلى وضع بدايات ناجحة لدراسات مقبلة تمتدّ بموضوع المرأة إلى ما استجدّ في القرن العشرين.